

تأثير الجانب الاجتماعي في تكوين شخصية صالح باي السياسية والإقتصادية

الأستاذ: طاهري عبد الحليم
علم الآثار
جامعة عباس لغرور خنشلة

الملخص :

تعتبر البيئة وطبيعة المجتمع عاملين أساسيين في تكوين شخصية أي فرد ولم تبتعد حياة الأعلام المشهورين عبر التاريخ القديم والحديث عن هذه النظرية ، ومن هذا المنطلق جاء موضوع تأثير الجانب الاجتماعي في تكوين شخصية صالح باي السياسية والاقتصادية ليبرز بالتفصيل شخصية مهمة في تاريخ الجزائر عامة وتاريخ قسنطينة خاصة في الفترة العثمانية ألا وهي شخصية صالح باي وأبرز المؤثرات التي ساهمت في إخراجها من العدم وتكوين رمز من رموز البايك وكذا إبراز مساهمات هذا الباي في الجانبين السياسي والاقتصادي حيث أن أعمال هذا الباي لاتزال للفترة الحالية شاهدة على مدى الرقي الفكري والعلمي والعمراني والفني التي بلغته مدينة قسنطينة.

Summary :

Is the environment and the nature of society two main factors in the formation of character of any individual and did not stray lives flags renowned across the ancient history and talk about this theory, and from this perspective was the subject of the influence of the social aspect in the formation of the benefit of a personal political and economic Bay highlights an important figure in detail

in the history of General Algeria and the history of Constantine private in the Ottoman period, namely the personal benefit of the Bay and the most prominent influences that contributed to the out of nowhere and configure code of Albilkk symbols, as well as highlighting the contributions of the Bey in the political and economic sides as the work of this Bey is still the current period a witness to the extent of intellectual, scientific, and urban and technical sophistication that reached the city of Constantine.

- حياته:

- انتقاله إلى الجزائر:

صالح بن مصطفى إزميرلي ، ولد بمدينة أزمير¹ غرب الأناضول سنة (1137 هـ / 1725 م) فهو تركي الأصل .

لم تذكر المصادر الشيء الكثير عن نشأة صالح بن مصطفى ، لكن كل ما يعرف عنه أنه ولد ونشأ في أسرة متوسطة الحال وهاجر إلى الجزائر ، هذه الهجرة لم تكن بمحض الصدفة ، بل أرغمه حادث مؤلم على الفرار من بيت أبيه وبلده وخوض مغامرات البحر ، كان قد تسبب في مقتل أحد أقربائه خطأ فهاجر دون رجعة وعمره لم يتجاوز سن السادسة عشر سنة ، لكن قبل هذا الفرار أثبت أنه رجل شهم حيث أرسل إلى أهل صاحبه المقتول بالخطأ تعويض قدر بستة عشر ألف

¹ أزمير : هي سميرنا القديمة مرفأ هام في تركيا على بحر إيجه ، استولى عليها العثمانيون عام 1422م .

فرنك ثم فرخوفا من الثأر المنتشر في تلك الفترة². وقد سجلت كل الروايات انه دخل الجزائر واستقر بها وقد بلغ السادسة عشر سنة من العمر 1741-1742م³.

نزل بميناء الجزائر مقر الداى باشا الأيالة الجزائرية ، واشتغل كمساعد في مقهى للإنكشارية ، وقد سمح له هذا العمل رغم بساطته بالتعرف على أوضاع هذا البلد الذي وفد إليه حديثا ، كما أن عمله في مقهى يرتاده أفراد من مختلف الطبقات سمح له أيضا بالتعرف على رجالات يعملون في الأوجاق⁴ ، تمكن من التقرب منهم وبفضل مساعدتهم له ، انخرط في التنظيم العسكري أي الجيش الإنكشاري .

تميز في منصبه الجديد بانضباطه ، وامثاله للأوامر التي كان يصدرها العسكر وقد أظهر شجاعته وقوته حيث كان يتقن جميع الفنون القتالية التي عرفت في عصره⁵ (5). ثم انخرط في الجيش (المليشيا التركية)⁶ ، قبل أن يوجه إلى قسنطينة في حملة عسكرية لدعم الفرقة التركية المعسكرة بها في عهد الباى أزرق عينو⁷.

² Charbonneau (A.) , « Inscriptions arabes de la province de constantine » , in Annuaire Archéologique de Constantin , 1856–1857 , p.116.

³ Vayssttes: l' histoire de Constantine de puis l'invaton turque jusqu'à l'occupation de 1835–1837, l'arndet Paris , 1900 , p 333.

⁴ الأوجاق : كلمة تركية ويقصد بها الدولة التركية في الجزائر .

⁵ GAID (M.),Chronique de Beys de Constantine, O.P.U,Alger S.D, p 38.

⁶ المليشا : هي الشرطة التي تتكون من الأتراك خاصة ، وتكون على قسمين : مليشا منتظمة ومليشا غير منتظمة ، وقد كان لها وزن في تعيين المسؤولين وعزلهم .

⁷ زرق عينو : هو حسن باي ، حكم المقاطعة بين (1754 – 1756 م) ، تركي المولد برز أثناء الحملة على تونس وهو صهر بوحنك ، كانت فترة حكمه قصيرة .

شارك في حملة الباي زرق عينو ضد تونس في يوم 05 ذو الحجة 1169هـ/31 أوت 1756م⁸. ولم تذكره المصادر إلا في هذه الواقعة أي وجه إلى مدينة قسنطينة في حملة سنة 1756م، لكن الإشكال الذي تحدثت عنه الدكتورة قشي هو تكتّم المصادر التاريخية وكذا الوثائق عن الفترة الممتدة بين سنة 1742م إلى غاية 1756 أي حوالي 15 سنة مجهولة في تاريخ صالح باي، كما لم يذكر التاريخ الحقيقي لالتحاقه ببايلك الشرق لكن المرجح أنه إلتحق بالبايلك قبل هذه الفترة حيث كان على علاقة جيدة بأحمد باي القلي⁹، هذه العلاقة بدأت بينهما عندما كان هذا الأخير يشغل منصب (باش سيار) والنظرية التي تقول بوفود أو وصول صالح باي إلى البايك في سنة 1756م هي نظرة خاطئة لأنه في هذه السنة تولى أحمد باي القلي زمام البايك ولو أنه وصل البايك في سنة 1756م فكيف له أن يتعرف بأحمد باي القلي وهو بايلك للشرق والآخر مجرد جندي في فرقة إنكشارية؟.

نظرا لما أبداه الرجل من مهارة وقوة في تلك الحروب، فقد أثار انتباه أحمد القلي الذي أعجب به قبل هذه الفترة بكثير، ويتولى أحمد باي القلي سدة الحكم بالبايلك كان التغيير الكلي في حياة صالح باي حيث جعل أحمد القلي من صالح بن مصطفى

⁸ - للمزيد حول هذا الخلاف مع أيلة تونس، أنظر:

- محمد الصالح ابن العنتري، فريدة منيسة في حال دخول الترك بلك قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، تقديم. يحيى بوعزيز، د.م.ج، الجزائر، ص73-74. - الحاج أحمد ابن المبارك، تاريخ حاضرة قسنطينة، ت. رابح بونار، د.ط، د.ت، ص23-24.

- Cherif (M.H) . pouvoir et société dans la Tunisie de Husayn Bin Ali (1705-1740) Tunisie Publ, fac de Tunisie ; 2 vol 1984-1986.

⁹ - كان أحمد باي القلي وهو جد آخر بايات قسنطينة (الحاج أحمد باي) مسؤولا عن البريد في البايك، كما تولى قيادة مدينة القل للمزيد حول أحمد باي القلي أنظر: ابن العنتري، المصدر السابق، ص77-78. محمد المهدي شعيب، أم الحواضر في الماضي و الحاضر أو تاريخ قسنطينة، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1985، ص374-375.

مساعدته ورفيقه ، وعندها ظهر صالح بن مصطفى في الواجهة بجانب الباي الجديد وفي مناصب هامة كقائد على الحركة¹⁰ .

استمر مسار صالح بن مصطفى في اتجاه الصعود نحو المراتب العليا ، نتيجة لاحتكاكه بالباي وقد ساعدته أيضا قوته العسكرية أثناء الحملات المختلفة ضد بايات تونس وكذا الحملات الموسمية للمحلة¹¹ إلى أن استطاع تولي منصب زعيم الحركة بالأوراس عام 1762 - 1765 م¹² .

كما عين خليفة للباي بين سنوات (1765-1771م) ، وبعد وفاة أحمد باي القلي ذكر للباشا اسم صالح خوجة وكان معروفا بخبرته بأحوال الرعية ومعرفته بالأمر كما هي ، فهو الأعرف بولاية قسنطينة وعمالتها فوافق على ذلك في شعبان عام 1185هـ/1772 م¹³ .

- الحياة الشخصية لصالح باي:

¹⁰ - هناك قبائل رحل بالمنطقة الجنوبية كالحركة وأولاد سحنون ، حيث كانت هذه المنطقة مسرح

للحملات العسكرية التي شنّها البايات لإجبار سكانها على دفع الضرائب .

¹¹ - المحلة أو الأحمال ، جمع محلة وهو اسم يطلق على مجموعة كبيرة من العسكر، كانت تخرج مرتين كل سنة تحت إمرة الباي أو من ينوبه وذلك لجمع الجباية .

¹² - فاطمة الزهراء قشي ، قسنطينة المدينة و المجتمع ، ج2 ، رسالة دكتوراه في التاريخ ، جامعة قسنطينة 1998 ، ص 90 .

¹³ - محمد الطاهر بن أحمد النقاد ، ذكر طرف ولاية المرحوم السيد صالح باي أميراً ببلد قسنطينة ، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس رقم 263 ، ص2-3.

تزوج صالح باي ابنة أحمد القلي ، وذلك نظرا لإعجاب أحمد بصفات صالح وهكذا توصلت أواصر العلاقة أكثر بينهما ، وبعد ثلاث سنوات أصبح خليفة له (1765 – 1777 م).¹⁴

ثم تزوج من امرأة بلدية من أعيان قسنطينة ، وهي ابنة رفيقه القديم أحمد الزواوي بن جلول¹⁵ ويذكر مرسي (MERCIE) بأن صالح باي

تزوج إمرة ثالثة¹⁶ ، وقد رزق بمجموعة من البنات والأولاد سبع بنات وثلاثة ذكور وهم السيد محمد الشريف والسيد حسين والسيد مصطفى ، السيد محمد تولى خليفة على رابع الأمراء بقسنطينة كما يبينه جدول ترتيب البايات وذلك بعد تولى أبيه قسنطينة والسيد حسين رجع أميراً بقسنطينة وهو سابع الأمراء بعد أبيه عام 1806م لمدة عامين¹⁷ .

14 – الخلافة : هي أعلى وظيفة في المقاطعة بعد الباي ، وتمتد سلطته على كامل المقاطعة وهو الذي يقوم بدفع الدنوش الصيفي أو الخريف بالجزائر .

15 – أحمد الزواوي بن جلول الصديق القلم لصالح باي ، ضابط قدم في معسكر الزواوة ونظرا لأمانته وإدارته لأعمال صالح باي توصلت العلاقة بينهما ، حيث أصبح صالح باي صهرا له وبقي سنده المالي والمعنوي طيلة فترة حكمه (أنظر) :

GAID : op . CIT , 39-

,p380. – MERICIER(E.) ,Histoire de Constantine, édition

braham

¹⁶ Constantine 1903

¹⁷ – محمد الطاهر بن أحمد النقاد ، المصدر السابق ، ص5 . كما ذكر سعيدوني بأن صالح باي خلف عشرة أولاد لكن العقود التي استعملها في دراسته لا تثبت ذلك .

بدأ صالح باي يوقف الأملاك لصالح أبنائه إبتداءاً من سنة 1193 هـ / 1779 م¹⁸ وقد امتلك صالح باي ثروة ضخمة أثارت حوله عدة تساؤلات : من أين له بهذه الثروة ؟ وكيف يمكن التفريق بين مال الدولة وماله ؟

بعد ولايته التي دامت اثني وعشرين سنة ، قتل شنقا بقسنطينة في أوائل سنة 1207 هـ / 1792 م بأمر من الداوي حسن باشا ، والذي يظهر من أقوال المؤرخين أن السبب في ذلك هو تخوف حاكم الجزائر من نفوذ صالح باي والصيت العظيم الذي أحرز عليه في أنحاء البلاد بحسن إدارته وعدله ، فدخله الشك أنه سيثور عليه¹⁹ .

- المناصب التي شغلها:

شغل صالح عدة مناصب منذ وطأت قدميه أرض الأيالة الجزائرية حيث تدرج في المناصب إلى أن تمكن من السيطرة على بايلك الشرق ، وكل ذلك بفضل الذكاء والحنكة الكبيرتين ولكن قبل الخوض في وصوله إلى تولي أمر البايك لابد علينا من التطرق إلى بداياته الأولى في الجزائر:

1- مساعد في مقهى للإنكشارية : حيث عمل في خدمة قهواجي الجند التركي بعد إلتحاقه مباشرة بالجزائر في سنة 1741 أو 1742 م ، أما عن المدة الزمنية التي إستغرقها في هذا العمل فهي غير محددة ، حيث لم تذكر المصادر التاريخية الفترة الزمنية التي ترك فيها العمل في هذا المقهى ، أما عن الشيء الإيجابي في هذا العمل

¹⁸ - الحاج أحمد المبارك، المصدر السابق ، ص 28 .

¹⁹ - الحاج أحمد الشريف الزهار ، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار ، ت.أحمد توفيق المدني ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1974 ، ص 64 - 65.

فقد ساعده في الاحتكاك بالعديد من الشخصيات العسكرية ، حيث تقرب من عناصرها.²⁰

2- جندي في فرقة الإنكشارية : حيث إنظم إليها في تاريخ غير معروف بسبب سكوت المصادر التاريخية ما يزيد عن خمس عشرة سنة من تاريخ هذه الشخصية وقد تطرقت إلى هذه النقطة في حديثي عن شخصية صالح باي ، حيث أثبتت مقدرة كبيرة في تعلم كل أساليب القتال المعروفة في عصره ، كما كان جنديا منضبطا مطيعا لأوامر رؤسائه ، ثم إنظم إلى الحملة المتجهة إلى قسنطينة وانظم إلى حاميتها ثم اشترك في في محلة موسمية للجباية وقمع المتمردين ومن ثم إنطلق في تسلم المراتب بفضل كفاءته ومهارته وهذا الموقف يدعم صورة العسكري العثماني الذي يرتقي إلى أعلى المناصب بفضل كفاءته ومهارته.²¹

3- قائد لقبيلة الحراكية (العواسي أو أولاد عيسى)*²² : الذي استعمل لقب رسميا في لقب الموظف المخزني المكلف بهذه القبيلة ، سرعان ما استقرت به المناصب العليا حيث كلفه الباي أحمد القلي بقيادة قبيلة الحراكية وكان المنصب بداية حقيقية لصالح باي مع السلطة ، لقد تكلمنا عن أحقيته في تولي المناصب العليا بسبب تفانيه في العمل الذي يوكل له وكذا طاعته لأوامر رؤسائه ، لكن هنالك أشياء أخرى ساعدته لتولي هذا المنصب الحساس في بايلك الشرق والذي أصبح لا

²⁰ Vayssttes , opcit , p 333.

²¹ – للمزيد حول هذه النقطة أنظر : فاطمة الزهراء قشي ، المرجع السابق ، ص89-90.

²² – الحراكية: هي قبيلة واسعة ومركبة ، انتقلت من البلزمة بسبب الكوارث الطبيعية وصراعات داخلية في اتجاه آريس ومنطقة عين البيضاء ، تنسب القبيلة إلى رجل نشيط متحرك "حركات" ، خلف أربعة أبناء تختلف أسماءهم حسب الروايات المنقولة منهم "عيسى" جمع "العواسي".

للمزيد حول هذه القبيلة أنظر:

-Babes(L.),Mythes d'origine et structures tribales dans le constantinois sous domination tirque : essai sur le fondement de pouvoir politique , op.cit,pp316-318.

- فاطمة الزهراء قشي ، المرجع السابق ،ص91.

يوكل إلا لأقرب قريب من الباي ، وهذا لجسارة هذه القبيلة ومكانتها حيث لا تقبل بأقل من أقرب الناس إلى الباي قائدا لها حيث لم يعد يرضي لحراكتة بغير أخ الباي أو ابنه أو صهره على رأسهم ، ومن بين تلك الأشياء هي صداقته المتينة للباي الجديد (أحمد باي القلي) وقد تحدثنا عن هذه الصداقة ، ربما هذه الصداقة سهلة من مأمورية صالح باي في تسلق هرم السلطة بالتدرج .

أما لقب قائد الحراكتة فهو منصب مهم وعال جدا لدرجة أن صاحبه يقطن بقسنطينة وله حاشية.²³ فقد تحدثت قشي عن شرف قيادة الحراكتة كما تحدث رايمودن (Raymond) عن ذلك أيضا ، وقد أهمل المؤرخون فترة قيادة صالح باي لقبيلة الحراكتة بالرغم من أهمية المنصب وأهمية القبيلة أيضا والتي كان لها دور كبير في بايلك قسنطينة ، حيث كانت تمد المخزن بعشرة آلاف جندي من بينهم أربعة آلاف فارس أثناء الحروب . تميز صالح باي وبرز في منصبه الجديد وكسب نقطة إضافية في سجله الحافل كما كسب إعجاب واحترام أحمد باي القلي .

4- خليفة الباي:²⁴ استمر مسار صالح بن مصطفى في اتجاه الصعود نحو المراتب العليا وذلك باحتكاكه بالباي الجديد حيث تولى منصب خليفة الباي لمدة ست سنوات أي بين (1765-1771م) ، حيث أكتسب صالح باي خبرة لا بأس بها في مجال الإدارة والمعاملات أثناء توليه منصب قائد الحراكتة أهله لتولي منصب أعلى منه شأنًا ومكانة ، كما ساعده الاستقرار السياسي في البايك حيث عمل مدة ست سنوات كخليفة لباي واحد (أحمد القلي) وتحت إمرة باشا واحد في الجزائر (محمد عثمان باشا) ، كل هذه العوامل المشتركة ساعدت الخليفة الجديد لإبراز شخصيته الحقيقية مما أهله لمصاهرة الباي القلي ، عايش صالح باي متاعب النيابة بتفوق وتقدير وزادت مهاراته مع السنوات.

²³ فاطمة الزهراء قشي ، المرجع السابق ، ص92.

²⁴ -الخليفة هو أول موظف بعد الباي وأول أعوانه ، له شؤون الأوطان في السهول المحيطة بقسنطينة وكان نفوذه يمتد إلى كامل المقاطعة ، يعمل تحت أمره القيادة ويتصرف في كل الفرق العسكرية النظامية (الميليشيات) لجباية الضرائب والحفاظ على طاعة السكان ، كما ينوب عن الباي مرتين في السنة في الربيع والخريف لدفع الدنوش الصغير ، وكانت تحت إمرته تسع قبائل تدعمه بمئتي فارس .

5- الباي : (1771-1791م) أثبت صالح بن مصطفى القائد والخليفة عن قدراته في تسيير شؤون الرعية والتزامه بالمشروعية باحترامه وأوامر الباي ومراعاة مصالحه ، حيث من المعروف عند الأتراك أن منصب الباي لا يرتقي إليه سوى من عرف بالحروب والشجاعة وحسن التدبير والسياسة²⁵ لقد اتصف صالح باي بكل الصفات الحميدة التي أهلته لكي يرتقي لهذا المنصب ، هذا ما جعل أحمد باي القلي يقترحه خلفا له وما جعل الداوي محمد بن عثمان باشا يرفعه لهذا المنصب عند وفاة أحمد باي القلي ، إذا تولى أعلى منصب في البايلك واستطاع أن يطبق كل سياساته وأفكاره في جميع المجالات ، كما استطاع أن يسكت كل أعدائه ومنتقديه ، وكانت فترة حكمه أزهى فترة عرفها البايلك في شتى الميادين (السياسية - الاقتصادية- الاجتماعية - الثقافية) ، وما يهمننا نحن كأثريين هو كون فترته أغنى فترة في مجال التشييد والبناء .

- تكوين الشخصية السياسية لصالح باي :

لقد أبرزت المواقف الشخصية الحقيقية لصالح باي ، لقد وقف المؤرخون سواء الجزائريين أو الأجانب حول تناقض في شخصية صالح باي ، حيث أن صالح باي جاء في فترة متوسطة بين استقرار الحكم في القرن 18م وبين تذبذبه واضطرابه في الربع الأول من القرن 19م ، كما استفاد صالح باي من أعمال سابقه من 1713م إلى 1771م حيث تمكن من قطف ثمار هذا الهدوء الاجتماعي مقارنة بالقرن الذي سبق فترته أي القرن 17م ، حيث وجه نظره نحو الداخل لترتيب أمور البايلك والتعرف على أوضاعه ، مكنته عشرون سنة من الحكم من تجسيد برامجهم ولو لم تخلو من تمردات ومصاعب ومشادات ومنافسات مع أصحاب القرار بدار السلطان

26

برز صالح باي في صورة النموذج المضاد للحاج أحمد باي فعند دخول الفرنسيين إلى مدينة قسنطينة واجههم الأخير بمقاومة شديدة ، لذلك الشيء ألصق به الفرنسيون كل تلك الصفات السيئة (السفاح - المستبد - المتعطرس) عكس

25 - محمد المهدي بن علي شعيب ، المرجع السابق ، ص 374 .

26 - فاطمة الزهراء قشي ، المرجع السابق ، ص 109 .

صالح باي الذي ترك ذكرى طيبة عند أهل المدينة بحيث يذكره أهل قسنطينة بالخير بعد مرور أكثر من أربعين سنة على وفاته ، لكن المتمعن في تاريخ بايات قسنطينة يجد أن معظمهم سفكت في فترات حكمهم الدماء بنسب متفاوتة وصالح باي مثله مثل بقية البايات الآخرين.

لكن هذا الأخير علق بمخيلة الفرنسيين في صورة إيجابية واستثنائية تؤكد القاعدة المذكورة على أنه المنظم الوحيد والعبقري النادر ووحده جمع صفات الرجولة بما فيها من طيش ومغامرة وصفات الحاكم القوي المتشدد تارة والحليم تارة أخرى .

عندما اعتلى صالح باي السلطة حقد على ابن الباي بوحنك بسبب نزاعه معه في زمن شبابه ، فوصل هذا الخبر إلى الأمير فاستطاع أن يلتجئ إلى تلمسان ، كما أظهر قساوة كبيرة أثناء غزوه لمنطقة أولاد نايل وأولاد عمور.²⁷

وإذا ما استشهدنا بأحد المواقف التي سجلها التاريخ عن بطش صالح باي وسرعة انتقامه أنه عند رجوعه من غزو منطقة أولاد نايل . وفي طريق عودته عسكر الباي مع جيشه في الهنشير باقليم الزمول ، عندما دخل رجل من عرش أولاد زايد من قبيلة البرانية (القريبة من باتنة) لسرقة مؤونة الباي ، فغضب عليه الباي غضبا شديدا وتمت عملية التعذيب بواسطة خازوق على الشكل التالي :

أنهم كانوا يعمدون إلى عمود خشبي يقومون بنتر الشوائب من كل جهة ، ثم يقومون بسنة من الجانب الحاد داخل جسد الشخص المعني حتى يخترق كتفية ، ثم يجعلون العمود قائما ليبدو الرجل وكأنه يمتط حصانا ، فتبقى يده ورجليه في

²⁷ — رشيد بورويبة ، قسنطينة ، سلسلة الفن و الثقافة ، وزارة الإعلام ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،

الجزائر ، جوان 1978 ، ص 17 .

حركة دائبة حتى تفارق روحه جسده²⁸. ويحدث كل هذا على مرئ الناس حتى يكون عبرة لهم.²⁹

بقراءة مثل هذه الأحداث يتبادر إلى الذهن أكثر من سؤال : هل كانت قسوة صالح باي ناجمة عن حياته الصعبة والقاسية التي اعتادها الأتراك أم هي الصرامة التي تحمي قوانينه وتحفظ له هيئته وهيبته الدولة أم هي سياسة الترهيب ، لئلا يتجرأ أحد على مجرد التفكير بالسطو أو السرقة . إن هذا الموقف ينقص من شأن صالح باي ويعطينا عنه صورة غير مرضية ، وكما كان قاسيا أمام هذا الرجل الذي حكم عليه بعقاب لا يتناسب مع الذنب الذي ارتكبه ، أظهر أنه حقود وسريع الانتقام.

- إن الحقد وسرعة الغضب والانتقام ليست جديدة عند صالح باي فإذا رجعنا إلى الوراثة قليلا نجد بأنه لم يأتي إلى الجزائر مع أفواج الشباب الذين انخرطوا في صفوف الإنكشارية من الأناضول ولا من بين شباب الخدمة العسكرية من المناطق المسيحية التي فرضت عليها ضريبة الدم ، ولم يكن أسيرا عند رياس البحر ، بل التحق إلى الجزائر خوفا من القتل بعد حادث مؤلم فقد قتل أحد أصدقائه ، يقال إنه قتله بالخطأ ، لكن المتمعن في تاريخ شخصية هذا الباي يدرك أنه قتله متعمدا أو بعد غضب شديد أدى به إلى الانتقام منه بقتله أو شيء مماثل . لكن حب أهل المدينة ربما قد غطى قليلا عن أفعاله الشنيعة . وفي تقرير للإدارة الاستعمارية عن البايات الذين حكموا البايلك وعائلات البايات السابقين مترجم من طرف قشي جاء فيه "...تغير فجأة وأصبح فضيحا مع رعاياه يقهرهم دون هوادة ، نازعا الأملاك حتى ممن تسبب هو في ثرائهم"³⁰.

²⁸ Vayssttes : OP . CIT . p 350.

²⁹ -ومنذ ذلك الحين والمكان يطلق عليه هنشير مسفح (سفود) أنظر :

Vayssttes : OP . CIT . p 333.

³⁰ - فاطمة الزهراء قشي ، المرجع السابق ، ص 103 .

أما الوجه الآخر لهذه الشخصية فنجدها في عدة مآثر تعادل العمليات القاسية التي قد ذكرناها خاصة عند الكتاب الفرنسيين أمثال شربونوا (Cherbonneau)³¹⁽⁴⁾ حيث قال: "إن صالح باي هو حاكم المقاطعة الوحيد الذي كانت له غرائز للإدارة المنتظمة، وكان يهتم في ذات الوقت بتجميل المدينة"، ويكمل حديثه عن صالح باي بقوله "هذا الحاكم الذي تميز بعبقرية الإدارة وهي خصلة نادرة عند أتراك الجزائر".³²

كما عرف في بداياته الأولى بكونه جنديا منضبطا حيث ارتقى من مدرسة الإنكشارية "مدرسة المساواة والمنافسة" في آن واحد فأصبح الأول بين أقرانه . الكفاءة والمهارة والولاء تلك هي الخصال التي أخرجته من العدم وسمحت له بالتميز والارتقاء . كما جاء تقرير للإدارة الاستعمارية حول بعض بايات قسنطينة وعائلات البايات السابقين، كما نجد في نفس التقرير السابق: "لكن الحال من الازدهار توقف وكان لها حد إذ أن صالح الذي كان إلى ذلك التاريخ عادلا وحياديا نزيها ..."³³ . كما عرضت أعماله في صيغة المدح "...أتقن بنيانها فكان فيها منفعة للبلاد ومصلحة، وحصنا للبلاد وأسس المساجد للديانات ، وأجرى للضعفاء والقليلين الصدقات فبذلك كانت أحواله في غاية الاستقامة والرعية طائعة ومنقادة".³⁴ أثبت صالح بن مصطفى القائد والخليفة عن قدراته في تسيير شؤون الرعية والتزامه بالمشروعية باحترامه وأوامر الباي ومراعاته مصالحه ، أما بعد توليه منصب الباي فقد عمل كل ما في وسعه لإرضاء الداي .

³¹ Charbonneau (A.) , : OP . CIT, 1856-1857, p. 112.

³² Charbonneau (A.) ibid.

³³ Anonyme , « Note Historique à propos de quelques familles constantinoises » , copie d'un document sans cote et sans date conservé au Centre National des Etudes Historiques , Alger .

³⁴ - محمد الصالح بن العتري ، المصدر السابق ، ص 62 .

فمن أهم مآثره التي سجلها لنا التاريخ هي مساهمته في سنة 1775م في التصدي للهجوم الذي قام به الكونت أوربي على الجزائر ، حيث أبرز صالح باي شجاعة وتكتيكا في مواجهة هذه الحملة ، حيث شهد له الجميع بالحنكة والخبرة وكسب محبة الجميع بعدها³⁵ . وبعد رجوع صالح باي من هذه الحملة إلى مدينة قسنطينة استقبل استقبال الأبطال وقام بعدها بتشديد عدة منشآت أبرزها مركب سيدي الكتاني ، حيث جمع صالح باي بين المواصفات العثمانية للإنكشاري النموذج وبين الصورة التقليدية للزعيم المستبد . كما استطاع صالح باي أيضا بموقفه الصارم أن يضطر حمودة باشا الباشا التونسي إلى دفع ضريبة مرتفعة المبلغ للوصاية الجزائرية .

2- تكوين الشخصية الاقتصادية لصالح باي :

شجع صالح باي المشاريع الاقتصادية حيث يقول مرسي : " عمل صالح باي بعد توليه على استتباب الأمن وإقامة علاقات تجارية وشجع الصناعات والحرف كالديباغة والحياكة وعمل على بناء طواحين في مختلف أرجاء المقاطعة وقام بعدة تجارب في ميدان الفلاحة"³⁶ .

ففي المجال الفلاحي أقام حديقة جميلة على بعد بضعة كيلومترات غربي المدينة أمام الباب الرئيسي والتي اتخذ منها مسكنه الريفي³⁷ . وشجع غراسة الزيتون، وفلاحة الأرز بسهولة الحامة وباقي أشجار الفواكه كما استحدثت شبكة من قنوات

³⁵ – للمزيد حول هذه الحملة أنظر:

– الحاج أحمد الشريف الزهار ، المصدر السابق ، ص52.

³⁶ – مؤلف مجهول ، ، ذكر طرف يسير يتعلق بأيام المرحوم السيد صالح باي الإزميري ، الخزانة العامة بالرباط ، ص1-4.

³⁷ Mercier (E.) , op.cit , p.296.

الري لإيصال المياه إلى المزروعات المسقية وأمر باستصلاح مستنقعات ضفاف وادي سيبوس بنواحي عنابة لاستغلالها في الزراعة.³⁸

لقد عين صالح باي من يتولى أمور الزراعة في البايلك وكان يسمى بقايد الجابري أو قايد التراب ويقوم هذا الشخص بجمع محصول البايلك في ثلاثة مخازن أعدت لهذا الغرض وهي برج ومطيب وبرج وادي الذهب وبرج المعمرة.³⁹

ومن مآثره أيضا : تفجير المياه بالصحراء وربط الينابيع ببعضها في شبكة من القنوات المجموعة بكيفية هندسية محكمة العمل لسقي البساتين والحقول من النخيل أو غيره من المغروسات والمزروعات وذلك التوزيع غاية في الإحكام والدقة اعتمدهت المحاكم الشرعية في تحديد الحقوق وبيان المقادير المائية لسقي كل مساحة.⁴⁰

أما في المجال الضريبي فقد امتاز بالدقة والملائمة لأوضاع البايلك ، بحيث ظل العمل به بعد حكم صالح باي فقد أخضعت جميع الأراضي الزراعية لضريبة الجبري⁴¹ . وما يعادلها من الشعير وعشرة شبكات من التبن كعلف الحيوانات.

وبمقتضى هذا قسم البايلك إلى قطاعين : شرقي وغربي يفصل بينهما وادي الحمام وكل قطاع يشرف عليه " قائد جبري" والذي يخضع بدوره "لقائد الدار" .

³⁸ — اشترى هذه الأرض من عائشة بنت حسين باي بقيمة قدرها 300 ريال ويسمي الفرنسيون هذه

الحديقة باسم "جنان صالح باي" ويسميه العرب "جنان سيدي محمد الغراب" . أنظر : صالح نور ، المرجع السابق ، ص28.

³⁹ — محمد الطاهر بن أحمد النقاد ، المصدر السابق ، ص29.

⁴⁰ — محمد المهدي بن علي شعيب ، المرجع السابق ، ص 383 .

⁴¹ — الجبري : يساوي اثني عشر صاعا ونصف من القمح . أنظر : محمد الصالح بن العنتري ، المصدر

السابق، ص 64 .

لقد قام صالح باي بتشجيع الصناعات والحرف ، وأصبحت قسنطينة في عهده تعج بالورش المختلفة والأسواق المزدهرة العامرة ، فهناك ثمانية وعشرون سوقا وسوقية ، وواحد وعشرون سباطا (ممر تجاري) وسبعة تربيعات

والحياكة والحدادة والخشب وأدوات الطين.⁴²

لصناعة النسيج وثلاثة رحبات لعرض السلع وخمسة أفران لصنع الخبز وسبعة وعشرون مطحنة للحبوب منها خمسة داخل المدينة تعالج يوميا أربعمئة وأربعة وثمانين كيسا من الدقيق . ومن ضمن المصنوعات التي ازدهرت وقتئذ الدباغة.

كما شجع صالح باي التجارة الداخلية والخارجية وتحولت قسنطينة إلى ملتقى القوافل التجارية الكبرى القادمة من طرابلس وغدامس وبسكرة والجزائر والمغرب الأقصى وكان البعض منها يضم مائتي جمل أو أكثر كانت تشحن بضائع البايك المختلفة الزراعية والحيوانية والصناعية إلى مختلف الجهات الإفريقية والمشرق العربي.

أما في مجال التجارة الخارجية البحرية فقد أصلح صالح باي الموانئ : عنابة – القالة- سكيكدة – سطورة – القل ، التي تفيد إليها السفن والمراكب التجارية الأوروبية من إيطاليا وفرنسا وغيرها.⁴³

⁴² – ناصر الدين سعيدوني ، دراسات وأبحاث دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، ج2 ، المؤسسة الوطنية

للكتاب ، الجزائر 1988، ص69.

⁴³ – محمد الصالح بن عنترى ، المصدر سابق ، ص 65 .

العلاقات الإجتماعية والسياسية لصالح باي :

أ- علاقة صالح باي بالأسر المحلية :

كان الصراع محتدما بين الأسر النافذة في السلطة ، وكانت أقوى تلك الأسر تأثيرا في السلطة هي تلك التابعة من قبيلة لحنانشة⁴⁴ وبدرجة أقل قبيلة النمامشة وحتى يقضي صالح باي على نفوذ قبيلة لحنانشة أن يبث الشقاق بين الأسر الحاكمة داخل السلطة حيث استطاع صالح باي كونه أقوى بايات عصره القضاء على نفوذ أسرة الحنانشة ، وقد استغل في ذلك إبراهيم⁴⁵ على غزو مدينة شارن التابعة لأيوالة تونس⁴⁶ وحينما احتجت تونس على ذلك استغل صالح باي الفرصة للتدخل عسكريا في المنطقة لإبعاد أتباع أسرة أحرار الحنانشة عن الشيخ إبراهيم .

44 - تقع الحنانشة بين تبسة وسوق أهراس وقلمة ومركزها سوق أهراس وهي مهابة للغاية ، يعين لها الباي قائدا وتحالف هذه القبيلة مع قبائل الشابية التي يضرب رئيسها معسكره قرب عيون الفسقية وتحكم هذه القبائل عائلة بن بوعزيز بالوراثة منذ زمن بعيد كما اكتسب شيخها مكانة لدى الحكام العثمانيين ونال امتيازات واسعة منهم . أنظر :

- Mercier (E.) , op.cit , p.213.

45 - عرفت أسرة الحنانشة في عهد إبراهيم بن بوعزيز ضعفا ولم يعمل على هذه الأسرة وصد سياسة بايات تونس وقسنطينة على السواء . - أنظر جميلة معاشي ، الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري من القرن 10هـ-16م/13هـ-19م ، رسالة لنيل الماجستير في التاريخ الحديث، قسنطينة ، 1990-1991، ص267.

46 - تم إعادتها لحاضرة قسنطينة سنة 1186هـ/1773م .

وتم الأمر ببث الشقاق بين إبراهيم وابنه بوحفص ، وبالتالي بينه وبين أتباعه وأصهار ابنه من قبيلة النمامشة⁴⁷ وأولاد يحيى بو طالب وقبائل الأوراس الشرقي الذين كانوا يكنون الولاء لزعماء قبيلة الحنانشة ، وكان المستفيد الأول من الوضع هو صالح باي الذي استطاع بمساعدة قبيلة الحراكمة الشبه المخزنية والخاضعة لقائد العواسي أن يقضي على ذلك الصراع وفي نفس الوقت على تفوذ أسرة أحرار الحنانشة بالمنطقة ، فاضطر الشيخ إبراهيم وحاش للفرار إلى قلعة "سنان"⁴⁸ حيث ضرب عليه ابنه حصارا فاضطر الشيخ إلى الاستسلام لصالح باي الذي قام بسجنه ثم قتله وولى مكانه ابنه الذي ظل مواليا لصالح باي لغاية وفاته سنة 1776 م.⁴⁹

كما تمتعت منطقة نفوذ بوعكاز في بسكرة باستقلال شبه تام ، على الرغم من وجود حامية عثمانية هنالك . وبقيت القبائل الرحل التابعة للشيخ العرب من هذه الأسرة ولم يتدخل البايات بالمنطقة إلا بوفاة شيخها فرحات بن رجاجة سنة 1148هـ/1736م.

وبتولي ابنه على بوعكاز أقدم الباي أحمد القلي على التقرب من شيخ هذه الأسرة ، وذلك بإرسال الهدايا بمناسبة تولي على بوعكاز المشيخة ، وهكذا استطاع كسب ولاء أقوى وأخطر أسرة صحراوية كانت تهدد الحكم المركزي⁵⁰ وخوفا من انقلاب هذه الأسرة على الباي عمل على ربطها بأعوانه وأصهاره والمقربين منه من أسرة بن

⁴⁷ النمامشة : مجموعة قبائل قوية تسكن غرب تبسة ويعين الباي لهذه قائدا يختاره بنفسه ويحسب لها حسابا عند اتخاذ القرارات.

⁴⁸ - جميلة معاشي ، المرجع السابق ، ص270.

⁴⁹ - نفسه ، ص271.

⁵⁰ - تم تنصيب الحامية ببسكرة عام 1514 بقيادة حسن آغا . أنظر: ناصر الدين سعيدوني ، ورقلة ومنطقتها في العهد العثماني ، عن مجلة الأصالة ، العدد 42 ، 1977 ، ص78.

قانة ، واستطاعت هذه الأخيرة من كسب هيمنة سياسية على القبائل بفضل ما كانت تقدمه للسكان من هبات مالية ، وبذلك تغير ولاء القبائل من أسرة بوعكاز لأسرة بن قانة ، الأمر الذي أدى لنشوب المعارك بين الطرفين.⁵¹

وكان منصب الشيخ محمد بن قانة قبل مجيء صالح باي مجرد منصب لحاكم صوري ، ولكن الأمر تغير باعتلاء صالح باي الحكم في قسنطينة ، فعمد إلى إعادته إلى الصحراء وتثبته ببسكرة محاولة منه تحويله من حاكم صوري إلى حاكم فعلي ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل لأنه منع من الدخول إلى بسكرة من طرف الشيخ محمد الدباح بوعكاز الذي كان يقف له بالمرصاد . واضطر صالح باي إلى سياسة المهادنة والتقرب من جديد من أسرة بوعكاز ، فاعترف صالح باي بموجب الهدنة بمشيخة هذه الأسرة على العرب مقابل أن يتخلى الشيخ الجديد (محمد الدباح) عن الثورة التي تم إعلانها على الباي السابق أحمد القلي . وقد استفاد صالح باي من هذه الهدنة حيث تفرغ لإصلاحاته وحروبه.⁵²

وفور انتهائه من صد الحملة الإسبانية سنة 1774م ، إتجه مباشرة إلى الصحراء في محاولة إخضاع سلاطين بن جلاب حكام توقرت وحلفاء بوعكاز ، وتم تقسيم المشيخة بين أسرة بن قانة وأسرة بوعكاز الأولى بمنطقة سيدي خالد والثانية ببسكرة ، وعين صالح باي محمد بن حاج بن قانة شيخا للعرب ببسكرة وأخاه

⁵¹ – جميلة معاشي ، المرجع السابق ، ص271.

⁵² Vayssttes , OP . CIT . p 362.

⁵³ – الحاج أحمد الشريف الزهار ، المصدر السابق ، ص65. – عبد الرحمن محمد الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ج2 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون ، الجزائر ، 1965 ، ص297.

إبراهيم حاكما على توقرت ، بعد أن تم إخضاعها بالقوة⁵⁴ . وأمام رفض السكان لحكم أسرة بن قانة ، انسحبت هذه الأخيرة من توقرت ولم يجد صالح باي بدا من إعادة إبراهيم بن جلاب إلى حكمه ، وما إن عاد هذا الأخير إلى حكمه أعاد الصراع معه.

وهكذا تحولت المنطقة الصحراوية إلى الصراع بين القبائل ، غالبا ما كان النصر لأسرة بوعكاز ولم تستعد أسرة بن قانة قوتها إلا بعد انقضاء عهد صالح باي.⁵⁵

ب- علاقة صالح باي بشيوخ الزوايا :

لقد أيقن صالح باي مبكرا الدور الهام الذي تلعبه الزوايا في المجتمع الجزائري بصفة عامة وفي المجتمع القسنطيني بصفة خاصة في الفترة العثمانية ، فالزاوية تستطيع التأثير على الناس حيث إذا تمكن من كسبها في صفة استطاع التأثير على عقول الناس في حالة الضرورة فعمل بهذا المبدأ ، فأخذ يتوودد للزوايا في أول عهده، لكن مع الإصلاحات التي قام بها الباي في مجال التعليم وكذا النظام الضريبي لم تبقى العلاقة كما كانت أول الأمر فظهرت صراعات بين السلطة والزوايا أدى في أغلبها إلى أحداث مأساوية حيث سنذكرهم الأحداث والروايات التي جرت بين الطرفين .

من بين الساخطين على حكم صالح باي ، المرابط سيدي محمد⁵⁶⁽¹⁾ الذي تميز بانتقاداته اللاذعة وذمه وقدحه الشديد ، وكان أول من تجرأ على مجابهة

⁵⁴ Férauda(CH.) , Les ben djeleb ,sultans de tougourt , R.A , N⁰ 133 , 1879 , P.69

⁵⁵ Ibid. p 70.

غضب البايع معتمداً في ذلك على عدم تعرضه للعقاب استناداً إلى شهرته وشعبيته الواسعة والتي ترفعه إلى درجة "القداسة" إلا أن صالح باي ما كان ليُسمح له بالتمادي عليه فحكم عليه بالإعدام . وبالرغم من توسل العلماء وبالرغم من الشعور العميق الذي أثاره هذا الحكم في المدينة فقد تم تنفيذ الحكم على مرأى الناس .

لكن الأسطورة تقول "أنه في الوقت الذي سقط فيه رأس المرابط إلى الأرض المخضبة بالدم تحول الجسم إلى غراب وعلق نحو دار التسلية التي أمر الأمير ببنائها في المكان المواجه للمدينة ، وألقى اللعنة عليه وهذا الأمر أثر في نفسية صالح باي ، الذي أحس بالندم وليكفر عن ذنبه قام بتأسيس ضريح باسم الشيخ ، ومذئذ ظل يحمل إسم "سيدي محمد الغراب".⁵⁷

كما كان الشيخ أحمد الزواوي⁵⁸ صديقاً مقرباً لصالح باي والناصح له لكن هذه العلاقة لم تدم ، بعد أن عجز الشيخ عن إقناعه بضرورة التخفيف من قسوته . واستقر الشيخ على قمة "جبل أوزقار" وقام بتوجيه الخطب المعادية للبايع

⁵⁶ – سيدي محمد الغراب : من الأولياء الصالحين المشهورين بالمنطقة ، استغل قداسه ومكانته وتجراً على مجاهدة البايع بجمع الإخوان لمعارضته وشق عصا الطاعة لصالح باي فكانت نهايته مأساوية وذلك بقطع رأسه فتحول هذا الولي إلى غراب حسب الأسطورة.

⁵⁷ – فاطمة الزهراء قشي ، المرجع السابق ، ص 107.

⁵⁸ – أحمد الزواوي : أحد المرابطين العيان المشهورين بقسنطينة ، كان يسكن في شطابة حيث توجد زاويته في جبل أوزقار يقع على بعد ثماني كلم جنوب غرب قسنطينة ، وهناك عمل على تعليم القرآن وتدريس علومه . أنظر : - صالح نور ، المرجع السابق ، ص 186.

- Charbonneau (A.) , « Inscriptions arabes, p. 108. et – Feraud ,
Berbagger ,L'expedition d'orelly R. A , 1865 , P. 303.

والتحريض ضده ، فأرسل الباي محلة عسكرية تتألف من الأتراك فقط لمحاربة المرابط وأتباعه الذين لاذوا بالفرار.

عندما اقتربت منهم قامت المحلة⁵⁹ بتخريب تلك الجهة ، لكنهم فشلوا في تحقيق هدفهم الأساسي وهو إلقاء القبض على الشيخ لأن أتباعه تمكنوا من إنقاذه من غضب الباي . وبمجرد ما علم الشيخ بأن أراضيه تتعرض للغزو وأن الأمر قد أعطي للقبض عليه فر من جلبه بعد أن أوقد بنفسه النار في كل الصبغات التي اعترضت سبيله.⁶⁰

وعاش منفيا وقد اجتمع معه عدد من الناس حيث قارب ثلاثة مائة نفر وتذكر الأسطورة أنهم عندما وصلوا إلى مدينة "مشتى النهار اعترض طريقهم ثعبان ضخمة فأمرهم الشيخ بقتله ولكنهم عجزوا فنزل الشيخ عن صهوة جواده . ووضع رجله على الثعبان ولواه حتى مات ثم استدار نحو الحشود المتعجبة وقال بأعلى صوته:

"الغلبة لله وحده، ونحن عبیده ولا أخشى أحدا من دون الله" وأمر كل أتباعه بالانصراف إلى ديارهم وتوجه هو إلى بيته⁶¹.

كما تذكر الرواية بركات الشيخ الزواوي ، الذي توقع هجوم الإسبان ، فانتقل وأصحابه ليلا من جبل "أوزقار" إلى ضفاف الحراش وتمكن من القضاء على المسيحيين بعدما تجمدت مياه البحر وهو راكب على فرسه وهاجم البواخر الإسبانية

⁵⁹ تتألف المحلة من 1500 جندي تركي ويستبدل منهم في الخريف 1250 جندي لتعويضهم بنفس العدد.

- Mercier (E.) , op.cit , p.211.

⁶⁰ Vayssttes , OP . CIT . p 362.

⁶¹ Ibid. p 371.

وأحرز النصر عليهم ، ولما عاد في الليل قص الحادثة على أصدقائه على أن تبقى سرا بينهم.⁶²

ورغم المكانة التي حظي بها شيوخ الزوايا وعلاقتهم الجيدة مع البيات ، إلا أن هذه المكانة العالية لم تدم طويلا ، خاصة على عهد صالح باي وذلك بظهور خلافات كان من أسبابها :

استحداث صالح باي لعدة أمور أولها توحيد نظام الضرائب وهو ما أزعج من كانوا يستفيدون من الإعفاءات على عهد البيات السابقين⁶³ ، وقد تسبب ذلك في نقص الموارد التي كانوا يحصلون عليها ، من عوائد زيارة أهالي الريف ، وتعرض أملاكهم للتغريم والمصادرة .

وأحس شيوخ الزوايا بنوع من المنافسة لزواياهم خاصة الإصلاحات التي أدخلها صالح باي في الإدارة بصفة عامة والتعليم الابتدائي خاصة للمدرسة الكتانية والتي خصها بميزانية ، حيث كانوا يقومون بتعليم الطلبة للقرآن الكريم وأمور دينهم من سنة وفقه وكان الطلبة يقدمون بعض المبالغ الرمزية أو هدايا لشيوخ الزوايا.⁶⁴

ج- علاقة صالح باي بالباشا في العاصمة :

لعل العلاقة بين البايك والأيالة هي نفس العلاقة بين الأيالة والباب العالي فكلتا الحالتين متشابهتين ولعل هذا الجانب لم يأخذ نصيبه في الدراسات التاريخية، فعلاقة الباب العالي بالأيالة الجزائرية هي علاقة دولة بولاية تابعة لها لكن هذه الولاية ذات حكم مركزي أو ذات استقلال ذاتي ، فالدولة العثمانية لا تتدخل في

⁶² - غلب على هذه الحادثة ومعظم الحوادث المشابهة لها والمتعلقة بشيوخ الزوايا الطابع الأسطوري.

⁶³ - ناصر الدين سعيدوني ، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ، ج 2 ، ص 74.

⁶⁴ - فاطمة الزهراء قشي ، المرجع السابق ، ص 105.

الشؤون الداخلية للجزائر ولا في علاقة الجزائر بسائر دول العالم ، فالجزائر كانت لها علاقات مع معظم دول العالم خاصة الأوروبية منها وكان لها سفراء في هذه الدول، وإن نظرنا من هذه الزاوية لقلنا بأن الجزائر كانت مستقلة تماما عن الدولة العثمانية.

لكن الشيء الذي يؤكد بأن الجزائر كانت تابعة أو تحت سلطة العثمانيين هو دفعها الضرائب للباب العالي وكذا مساهمتها في رد العدوان على الدولة العثمانية .

نفس الشيء ينطبق على علاقة بايلك الشرق بالأيمالة الجزائرية فهي تقوم على الاستقلال الذاتي للبايلك وعدم التدخل في شؤونه بشرط دفع الضريبة (الدنوش) مرة كل ثلاث سنوات والمساهمة في صد أي هجوم أجنبي على أي رقعة من البلاد الجزائرية وكذا تعيين البايات .

- إن أبرز الأمور التي بينت تبعية الباي للداي بالعاصمة هي: الدنوش وكان هناك ثلاثة أنواع من الدنوش واحد يدفع في الخريف والثاني في الربيع ويقوم خليفة الباي بتقديمهم للداي في العاصمة أما دنوش الصيف فيقدمه الباي بنفسه للداي في الجزائر

- دنوش الصيف : الذي كان يدفع في فصل الصيف مرة كل ثلاث كان يدخل الباي إلى العاصمة وهو لابس للخلعة مثله في ذلك مثل بقية البايات . إلا أن هديته التي يهديها للباشا في اليوم الموالي حيث يذهب لملاقاته فهي نحو ثلاثين ألف محبوب⁶⁵ ذهباً ، وبعض الهبات من الألبسة والمواشي والطيب والعطور والمرجان والعنبر والبرانس السوسدي (رقيقة جدا تنسج من الصوف والحبر) وأشياء أخرى من

⁶⁵ المحبوب : قيمته 30غرام فضة أو ما يعادلها ذهباً

المجبود (الجلد المطرز) والأثاث والخيل والسمن والمحور (كسكسي ناضج مجفف يختص بصنعه أهل قسنطينة).⁶⁶

-دنوش الخريف : حيث كانت تأتي الباي من الجزائر محلة عظيمة تجول معه الوطن أو مع خليفته فيتجولون لاستخلاص الضرائب من كل عرش ، ثم ترجع إلى الجزائر في دنوش الخليفة ، فإذا بلغ الخليفة الجزائر دفع الدنوش على حسب عادة من قبله ويقيم الخليفة بالجزائر سبعة أيام ويخرج في اليوم الثامن ويأتي معه بخلعة فإذا وصل إلى البلد يخرج الباي صباحا لملاقاته ومعه أهل مملكته فإذا إلتقيا تجعل الخلعة على الباي يدخل بها البلد وحين ينزل إلى دار الباي يلبسها الخليفة ويصعد بها إلى داره.⁶⁷

- دنوش الربيع : فيأتي الخليفة بقفطان فيلبسه في أي مكان وجد به أثناء وصول المحلة وتأتي المحلة أثناء فصل الشتاء فيترك الخليفة من ينوب عنه في محلة واد الرمل ويتجه إلى الصحراء لجمع الضرائب مصاحبا معه المحلة القادمة من الجزائر ، وفي أول فصل الربيع تعود المحلة إلى قسنطينة ثم تتوجه إلى الجزائر.⁶⁸

أما الشعير فلا يدفع منه شيء ، وبأي الشرق يزيد نحو ألفي رأس من البقر للبايلك ، وألف رأس عوائد ويفرق القمح للعوائد كذلك ، والتمر والزيتون في كل سنة في أيار ويبعث في صيف كل سنة مركبا مشحونا بالشحم والسمن للمراكب الجهادية من مرسى عنابة.⁶⁹

⁶⁶ - الحاج أحمد الشريف الزهار ، المصدر السابق ، ص297.

⁶⁷ - محمد الطاهر بن أحمد النقاد ، المصدر السابق ، ص18-19.

⁶⁸ - محمد الطاهر بن أحمد النقاد ، المصدر السابق ، ص19-20.

⁶⁹ - مؤلف مجهول المصدر السابق ، ص5-6.

- بالإضافة إلى كل هذه الأمور فإن الداى بالجزائر كان يعين في كثير من الأحيان البايات سواء بقرار منه أو باقتراح من أعيان مدينة قسنطينة أو الفاعلين في السلطة.

- أما العلاقة المباشرة بين صالح باي وداى الجزائر فقد كانت متميزة معظم فترة حكمه بسبب كفاءته في إدارة شؤون البايلك من جهة وفي دفعه للدنوش في وقته وكان يزيد عن القيمة المخصصة له ، كما أثار إعجاب الباشاوات وكل سكان العاصمة خاصة في صد الهجوم الإسباني على العاصمة. وبهذا فإن الداى في الجزائر لم يتلقى شكاوى ضد صالح باي وكان راض عنه كل الرضى ، إلا أن سيرته تبدلت في أواخر أيامه، حيث يصف ابن النقاد هذه العلاقة بقوله: "وكانت سيرته مع السيد محمد سلطان الجزائر تامة وكان يكثر الهدايا للغاية".⁷⁰

* ختاماً نقول أن للتكوين الاجتماعي لصالح باي دور مهم وحاسم في تكوين شخصيته في جل الجوانب خاصة في المجالين السياسي واقتصادي ولعل الأمثلة المذكورة على المناصب التي ترقى فيها صالح باي لدليل واضح على الشخصيته القوية التي لم ترضى بالقليل بل كانت طموحة إلى أقصى الدرجات ، ولو أسعفه الحظ ولم يتم اغتياله من طرف حسن باشا في محرم 1207هـ/01 سبتمبر 1792م حيث سلمت جثته إلى أسرته فدفنته في مدرسة سيدي الكتاني لكان ربما قد وصل إلى درجات أعلى لأن طموحاته كانت كبيرة وغير محدودة ، كما أن الإصلاحات التي قام بها في المجال الاقتصادي ساهمت بقدر كبير إلى تحويل بايلك الشرق إلى أهم مركز في الجزائر في المجال الاقتصادي .

⁷⁰ - محمد الطاهر بن أحمد النقاد ، المصدر السابق ، ص18.